سينما

«حمّام الشيطان» مدخلٌ إلى خلاصٍ

صُنع العنف سينمائياً بقسوة ومتعة

فيلمٌ نمساوي يروي تأسيس العنف الفردي في جماعة، استناداً إلى وقائع حاصلة في منتصف القرن 18، عبر امرأة تقتل مراهقاً كي تنجو من الحياة

نديم جرجوره

أحد الأوصاف الممنوحة لـ«حمّام الشيطان (Des Teufels Bad)»، للنمساويَّين فيرونيكا فرانتز وسڤرن فيالا، يقول إنّه «فيلم رعب ودراما»، وإنّه إنتاج نمساوي. ألماني مشترك (ويكيبيديا الإنكليزية). مُشاهدته تُلغي صفة رعب لمصلحة دراما، رغم أنّ مَشاهد عدّة فيه تعكس مناخاً يُثير رعباً، بالمعنى السينمائي التقليدي العادي (ربما)، المتعارف عليه، لكنّ الرعب غير متمكّن من إحكام سيطرته، مع أنّ تصويراً لحالاتٍ مختلفة تُثير شيئاً من رعب (لعلّه قرف وغضب وقهر، أكثر منه رعباً) إزاء عنفٍ كامنٍ في نفسٍ وروحٍ بشريّين، قبل خروجه إلى العلن، بكلّ ما فيه من وحشية ودموية.

مداخل عدّة مُفيدةٌ في معاينة «حمّام الشيطان»، الفائز بجائزة «الدبّ الفضي لأفضل مساهمة فنية»، ينالها مارتن غيشْلاغْت (مدير التصوير)، في المسابقة الرسمية للدورة 74 (15 . 25 فبراير/ شباط 2024) لـ«مهرجان برلين السينمائي (برلينالـه)». مداخل يُمكن استخدامها، أو استخدام أحدها على الأقل، لولوج عالمٍ مليءٍ بالعنف والقسوة والتسلّط والبطش، وإنْ يظهر هذا كلّه مباشرة أحياناً، ومُبطّناً أحياناً أخرى. والمبطّن جوهر سينمائي، درامياً وفنياً وجمالياً، يُمهِّد، أو بالأحرى يحتاج لاحقاً إلى المباشر، ليكتمل المشهد.

مشهد العرس يجمع أناساً، سيكونون هم . هنّ أنفسهم في مشهد الإعدام (الخاتمة). التحوّل من فرح عرس بين حبيبين إلى نشوةٍ، تقترب من الرعشة، في اللاحق على إعدام أغنس (آنيا بْلاغْ)، وبـ«فضل» هذا الإعدام، مخيفٌ لشدّة وحشيّته الواقعية، وجماليته السينمائية، ودلالاته المخبّأة فيه: الوحش كامنٌ في الفرد والجماعة، والأخيرة سببُ أصيل في تغذية العنف في الفرد. احتساء الخمر في حفل العرس، بعد لحظات على بداية «حمّام الشيطان» (في اللحظات تلك تأسيسٌ للاّحق الذي يبلغ، في النهاية، ذروة الوحشية الفردية . الجماعية)، يُصبح احتساءً لدم المقتولة إعداماً بقطع رأسها (أغنس)، لأنّها رافضةٌ حياة بائسة، عنفها (أي عنف الحياة البائسة) لن يكون أقلّ حدّة وقسوة وخراباً من كلّ عنفٍ آخر.

ألن يكون في هذا التحوّل، من احتساء خمر (لعلّه النبيذ؟) إلى احتساء الدم، إسقاطاً دينياً يُحيل، ضمناً، إلى ثنائية الدم . الخمر في الرواية المسيحية؟ «اشربوا منها (كأس الخمر) كلّكم، لأنّ هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، الذي يُسفَك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا» (متى 26: 26 . 28)؟ أيكون احتساء الدم، في ختام «حمّام الشيطان»، إنهاءً لمرحلة، وتحضيراً لحالة أخرى، أي لحياة . عهدٍ جديد؟ أينبثق الخلاص من دمٍ، أي من قتلٍ وعنفٍ، كي يكتمل (الخلاص)؟ أمْ أنّ التحوّل في «حمّام الشيطان» غير مرتبطٍ بأي إسقاطٍ ديني، وربما يكون (الإسقاط) أخلاقياً أيضاً، لاكتفائه بتعرية فرد . جماعة، وفضح حجم العنف المولود فيه. فيها منذ ما قبل تكوّن الجنين في رحم الأم. المرأة؟ والمرأة، «الممنوع عليها» أنْ تكون أمّاً في «حمّام الشيطان»، ألنْ تختار العنف (قتل مراهقين . مراهقات) دربا إلى خلاصٍ منشود عبر الجماعة وقوانينها، بعد فشلها الفرديّ في إنهاء حياتها (محاولة انتحار)، رحمةً بها، وخلاصاً لها من جحيم الأرض؟

أتكون أغنس مسيحاً آخر، يمنح الجماعة دمه لخلاصٍ من بؤسٍ وقهرٍ وعذاب، وكثيرون. كثيرات في الجماعة غير منتبهين وغير مدركين وغير آبهين، والخلاص يأتي مصادفةً، وإنْ يحصل عليه قليلون . قليلات؟ لا حاجة نقدية إلى تحليل أكثر من هذا. لكنّ «حمّام الشيطان»، المستند إلى وقائع حاصلة في «النمسا العليا» عام 1750، يُحرِّض، ثقافياً وتأمّلياً وانفعالياً، على تفكير. تحليل كهذا، من دون تجاوز مسألتين فيه: وقائع تُروى، وبحثٌ في كيفية صُنع العنف في ذات فردية، وإنْ بشكلٍ غير مباشر. أغنس نفسها لن تكون الأولى أو الوحيدة، ففي المشهد الافتتاحي، امرأةٌ «تخطف» رضيعاً يبكي، وترميه في منحدر شاهق، ثم تذهب سيراً على قدميها إلى قلعةٍ، تُشبِّه ديراً، وتعترف بارتكابها جريمة قتل، فتُعدم بقطع رأسها. المرأة نفسها تُصبح «شاهداً» على واقع، يتمثّل (الشاهد) بـ«مزار» يتضمّن جسدها جالساً على كرسيّ، ورأسها المقطوعة واقعةً على الأرض قربها، وتفاصيل عنفية أخرى حاصلةً فيها. تعثر أغنس على الـ«مزار»، مصادفةً ربما (إيحاء سينمائيّ رائع)، فتعثر، في الوقت نفسه، على خلاصها المتأخّر وقتاً غير كثير، من دون أنْ توحي بذلك (إيحاء سينمائي رائع، أيضاً). مُصاب أغنس متمثّل بعجز . رفض زوجها وولف (دافيد شايد) مضاجعتها. هذا أوّل مُصاب تشعر به. بل هذا تأسيس فعلي لخراب، تُكتشفه أغنس تدريجياً. والعجز أكثر طغْياناً من الرفض، فالرفض ربما يكون غطاءً لعجز الرجل في مجتمع ذكوري خانق، يصنع انفصالاً، ويُعرّي فرداً، ويكشف سوء حياةٍ في بيئة ضاغطة، بعض نسائها (الأم مثلاً، ووالدة وولف تحديداً) مساهمٌ فعليّ ومباشر في تفشّيه (العنف، سوء الحياة، إلخ).

طغيان الحكاية لن يحول دون تنبّهٍ إلى جماليات فنّ وتقنيات. تصوير الطبيعة والجماعة لن يمنع تصوير فردٍ وانهياراته وخرابه واهترائه. تصوير الفرد يتجاوز الحرفية المهنية إلى إبداع، يرتكز على مفردات عِلْمي النفس والاجتماع، والفكر والتاريخ أيضاً. فالتصوير يخترق موانع، ويعتمد الرماديّ، غالباً (وليلٌ يسيطر على كلّ شيءٍ وكل أحد، مع نور خفيف منبثق من شمعة ما، أحياناً)، وينبش أهوال ذات بشرية، مخبّأة في زوايا عدّة منها. والتصوير سردٌ بصريّ أجمل وأهمّ من كل كلام ولقطة وتفصيل، وهذا كافٍ، رغم تفاصيل جمّة تصنع فيلماً، يتوغّل في نفسٍ وروحٍ، أولاً وأساساً.

> تصوير سينمائي يُعرّي ذاتاً وبيئة بلغةٍ بصرية رائعة

آنيا بْلاغْ ـ اغنس: خرابٌ ينتهي
في إعدام (الموقع الإلكتروني لـ«برلينالـه»)

«أنْ تكون فلسطينياً» في المنفى

محمد جبالي: غزّة هويتي التي أقاتل لأجلها

بارِسل ـ **العربي الجديد**

منذ اندلاع حرب الإبادة الإسرائيلية في قطاع غزّة، ردّاً على «طوفان الأقصى» (7 أكتوبر/ تشرين الأول 2023)، اتّخذت صحفٌ ومجلّات غربية موقفَ دولة الاحتلال، من دون تنقيب عن حقائق ووقائع، يُفترض بقواعد المهنة ومفرداتها وأخلاقياتها البديهية أنّ تحثّ على تنقيب وتأكّد، لكنّ الجريمة الإسرائيلية الحالية، المتمادية بعنفٍ لا شبيه له في الحروب الإسرائيلية السابقة، غير قادرة على مزيدٍ من التزام أعمى لسلطاتٍ غربية، ما جعل صحفاً ومجلات تُغيّر، ولو قليلاً، من سياساتها التحريرية، مانحة الفلسطيني . الفلسطينية مساحةً مقبولة، وإنْ تكن أقلّ من اللازم، لقول رأي وشعور، وللتعبير عن موقف وحالة.

«كوريير أنترناسيونال» (مجلة أسبوعية فرنسية، تنشر ترجمات فرنسية لمقالات متنوّعة، منشورة في صحفٍ ومجلات غير فرنسية) خصّصت ملفاً من 12 صفحة بفلسطين، عنوانه «أنْ تكون فلسطينياً»، في عددها 1740 (7 . 13 مارس/آذار 2024)، يتضمّن بوحاً وتحليلاً ونقاشاً، في مواضيع مختلفة، منها حوارٌ خاصّ في المجلة نفسها مع الفلسطيني محمد جبالي، مخرج «الحياة جميلة» (2023)، الوثائقي الأخير له، الفائز بجائزة أفضل إخراج (5 آلاف يورو)، في المسابقة الدولية للدورة 36 (8 . 19 نوفمبر/تشرين الثاني 2023) لـ«مهرجان أمستردام الدولي للأفلام الوثائقية (IDFA)»، والمعروض في الدورة 22 (8 . 17 مارس/آذار 2024) لـ«مهرجان الأفلام والمنتدى الدولي لحقوق الإنسان» في جنيف. هذا حدثٌ، لـ«كوريير أنترناسيونال» نفسها حضورٌ فيه شريكاً أساسياً: «أفلامٌ معروضة، وطاولات مستديرة مُنظَّمة بهدف تغذية النقاش حول الحقوق الإنسانية في العالم»، كما في تعريفٍ رسمي بالمهرجان، الذي (التعريف) يُضيف أنّه، إلى حربي غزة وأوكرانيا، «هناك العنف البوليسي، والذكاء الاصطناعي، والنسوية أيضاً»، بوصفها مواضيع أساسية. مولودٌ في مدينة غزّة عام 1990، يتعلّم محمد جبالي السينما بعصاميّة، في إطار تعاونيّ. منذ عام 2014، يُقيم في النرويج، التي يدرس السينما فيها، علماً أنّه يتابع حالياً تكويناً في الفنون الجميلة. في أوّل وثائقي طويل له، «إسعاف» (2016)، يتابع يوميات مُسعفين في قطاع غزة في الحرب عليه، صيف 2014. عن «الحياة جميلة»، يقول بيان لجنة التحكيم، المؤلّفة من إيميلي بوحيس وفرانشيسكو جيا فيا وتابيثا جامسون وأدا سولومون وكسياشوياي وانغ، إنّه «تعبير سينمائي، في الوقت المناسب، عن الحاجة العالمية إلى الاعتراف بإنسانيتنا الكاملة». يُضيف البيان أنّ الفيلم «إدانة مقنعة للهياكل البيروقراطية والسياسية التي تنكر ذلك»، وأنّ فيه «نغمة إخراجية تتمكّن، بصورة شبه مستحيلة، من العثور على الأمل والفكاهة، وسط ألم لا يمكن تصوّره». إنّه (الفيلم) «حاجة ملحّة».

أول سؤال في حوار «كوريير أنترناسيونال» معه، يحاول معرفة كيفية عيشه، في هذه الأيام، إزاء الوضع الحالي في غزّة: «لا أتمكّن من السيطرة على ذهني. هذا صعبٌ جداً في الاستمرار في العيش بصورة طبيعية. هذا يؤثّر على كلّ مظاهر حياتي. هناك أيامٌ لا يُمكنني فيها الاتصال بعائلتي، لأن وسائل الاتصال وشبكة الإنترنت مقطوعة. جدّي توفّي قبل أسابيع، لأنّه أُصيب بمرض، ولم يتمكّن من الحصول على علاج، إذْ لمْ تعد هناك مستشفيات. أصدقاء مُقرّبون مقتولون في هذه الإبادة. لا أملك أدنى فكرة أين يوجد بعض الأقارب حالياً».

لكنْ، ماذا يعني أنْ يكون المرء فلسطينياً، وأن يُقيم في الشتات، اليوم؟ «وُلدت ونشأت في غزّة. إنّها هويتي. هذا وقتٌ عليّ فيه أنْ أقاتل من أجل هويتي. الطريقة الوحيدة عندي لأفعل ذلك كامنةٌ في الاستمرار في الكلام عن حيواتنا، وفي إظهار أحزاننا ونضالاتنا، لتعبئة أناسٍ أكثر، كي نحصل على حريتنا، التي نناضل من أجلها منذ 75 عاماً».

«الحياة جميلة» يُظهر عوائق التنقّل التي يعانيها الفلسطينيون، و«السخافة» الناتجة عن ذلك بالنسبة إليهم، كما في قول للمجلة الفرنسية نفسها، يُذكّر (القول) أنّ جبالي «يعلق» في النرويج عام 2014، بعد تلبيته دعوة في إطار تبادل ثقافي: «(حينها) أمرتك الدولة بمغادرة البلد، في حين لا توجد أي إمكانية للوصول إلى غزّة بسبب الحرب». يقول جبالي إنّهم وضعوه في كُشك خاص بمن لا يملكون جنسية، وإنّه ناضل من أجل حقّه في الوجود، ووَاجَه أوراقاً وكلمات تُجرّده من إنسانيته: «عليّ بالتأكيد أنْ أقاتل بقوّة أكبر. لا أستطيع التخلّي عن هويتي، لأنّ هناك من يريد أنْ يُعينني في حالتي هذه فقط، أو أنْ أعيش بطريقة معينة. أريد أنْ أختار طريقي الخاصة بي، وأنْ أصنعها كما أرغب في ذلك».

عن الوثائقي الأخير، وكيف جاءته فكرة تصويره كسجلّ لمغامراته، وما الذي أراد إظهاره للجمهور، يقول جبالي: «في غزّة، كنتُ سعيداً أكثر من أيّ مكان آخر، فهناك حياتي كلّها. بالتأكيد، هناك قيود وتحدّيات كبيرة، لأننا نكبر مع حروب متتالية، ونشاهد القنابل تسقط علينا، لكنْ، نحاول جميعنا أنْ نعيش حياة تكون طبيعية قدر المستطاع». يُضيف أنّه في غزّة، تعلّم أنْ يكون إيجابياً، وأنْ يبقى متفائلاً.

وماذا عن المنفى؟ فالمخرج الشاب يُقيم في النرويج منذ 10 أعوام، وفي فيلمه الأخير كلامٌ عن صعوبة أنْ يكون المرءُ في المنفى: «كيف تعيش المنفى؟». يُجيب: أحاول أنْ أحافظ على صلة مع ما يكون أكثر حميمية. مثلاً: أنْ أطبخ طبقاً من عندنا، بالمذاق نفسه الذي كانت تصنعه الوالدة. بالمذاق، يمكنني العودة إلى فلسطين لحظة، وبالموسيقى ونشاطات ثقافية أخرى أيضاً. هذا ما أظهره في الفيلم، تماماً كما التجارب التي أمرّ بها».

> مذاقُ الطعام الفلسطيني وسيلةٌ لتواصلٍ دائمٍ مع غزّة

«الحياة جميلة»: عن المنفى والعيش وفلسطين (الموقع الإلكتروني لـ IDFA)

أفلام جديدة

■ Bosco لنيكولاس مانويل بينو، تمثيل أوبراي جوزف ونيكي بلونسْكي (Getty) وبراندن روجرز: الفيلم يستند إلى قصة حقيقية، بطلها كواونتاي «بوسكو» آدامز، المحكوم عليه (2004) بالسجن لـ35 عاماً، بتهمة حيازته ماريغوانا. الأهمّ لاحقٌ على الحكم، ذلك أنّ بوسكو سيُنفّذ عملية هروب مذهل من السجن، عام 2006، بمساعدة امرأة، التقى بها عبر منصّة معروفة باسم «إعلان القلوب الوحيدة».

■ Five Blind Dates لشون سيت، تمثيل شُوَانغ هو (Getty) ويوسون آن و جون بْراسيدا: ليا، التي اقترب عمرها من نهاية العشرينيات، تصل إلى طريق مسدودة. هناك مقهى ترثه عن جدّتها، لكنّها تواجه صعوبة كبيرة في إدارته وحمايته من تحدّيات خطرة. كما أنّ احتمال الذهاب إلى حفلة زفاف شقيقتها الصغيرة، من دون دعوة. موعد، بعيد كلّياً عن سحرها. تُرى، ما الذي ستفعله في هذا المفصل الأساسي في حياتها؟

■ Witchboard لتشاك راسل، تمثيل مِلْ جارْنسن (WireImage) وديفيد لا هاي وتشارلي تاحان: تنتقل إيميلي وصديقها كريستيان إلى نيو أورليانز، ويُقيمان في منزل واحد مع أصدقاء لهما. أرادا عملاً، فاستثمرا مكاناً قديماً مهملاً، وعند العمل فيه اكتشفا لوح بندول «ويغا» قديم، استخدم سابقاً في استدعاء الأرواح. يقلق كريستيان بشأن إيميلي، ويدعو ألكسندر، الخبير في السحر والتنجيم، لعلّه يكتشف سبب القلق. تقع أحداثٌ عدّة، بينها ظهور عشيرة من السحرة البيض.

■ Ruby Gillman، Teenage Kraken لكيرك ديميكّو، تمثيل لانا كوندور (WireImage) وسام ريتشاردسون: تعلم روبي، فتاة «كراكن» (16 عاماً)، أنها التالية في صف «كراكن» البحري الأسطوري. رغم مصيرها النبيل، ترغب في الالتحاق بـ«مدرسة أوشنساید الثانوية»، لكنّها تواجه صعوبة في التأقلم، عندما تمنعها والدتها من الذهاب إلى الشاطئ. بعد عصيان قواعد والدتها، تكتشف أنها تنحدر من ملكات «كراكن» المحاربة، وأنّها ستصعد إلى العرش كملكة البحار السبعة المحاربة.

■ Juror No 2 لكلينت إيستوود، تمثيل نيكولاس هولت وتوني كوليت (Getty): يتمّ اختيار جاستن كيمب في لجنة حكم قضائية، إلى جانب مواطنين آخرين، في محاكمة قتل خطرة للغاية. سريعاً، يجد الأب نفسه أمام معضلة أخلاقية أخطر، عندما يكتشف أنّه ربما يكون، هو نفسه، مُرتكب الجريمة.